توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

رأينا من قبل أن عددا كبيرا من المؤرخين العرب عاصروا بداية قيام الحروب الصليبية ، وعاشوا أحداث ذروتها في حطين وتحرير الساحل والقدس وملحمة عكا حتى وفاة صلاح الدين ، لكن بعض كتابات هؤلاء المؤرخين ماتزال بحكم المفقود، ثم ان الصراع ضد الصليبيين مرّ ــ بعد صلاح الدين ـ بمراحل متميزة انتهت بتحرير عكا من قبل الأشرف خليل، وعاش أيضا هذه الاحداث مجموعة من المؤرخين العرب الكبار لم يقتصر نشاطهم على التأريخ لما عاصروه، بل نقلوا عن كتابات الذين تقدموهم ، وعلى هذا لنتاجهم أهمية مزدوجة ، ويتصدر جيل القرن السابع من المؤرحين العرب الشاميين أربعة هم: ابن خلكان، وابن أبي الدم الحموي، وابن نظيف الحموي، وابن واصل الحموي.

وابن خلكان هو: أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي الإربلي كان يكنى أبا العباس، ولد بمدينة إربل سنة ٦٠٨ هـ/ ١٢١١م بدأ في تحصيل العلم في بلدته ثم قصد سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩ م مدينة حلب لتلقي العلم فيها، خاصة على ابن شداد، صاحب صلاح الدين والمؤرخ لحياته، وذكر ابن خلكان هذا لدى ترجمته لحياة ابن شداد في كتابه وفيات الأعيان.

غادر ابن خلكان مدينة حلب الى دمشق، وقد اتخذها داراً له، فيها أكمل تحصيله العلمي، وفيها تسلم منصب قاضي القضاة، وبات في مقدمة أعيانها لاسيما أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس، وفي دمشق مات سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢ م . وبالنسبة للمهتم بالتاريخ ، ان مكانة ابن خلكان وشهرته صادرة عن تصنيفه لكتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » وهذا الكتاب من أهم كتب التراجم العامة وأشهرها، صنف من ترجم له حسب حروف المعجم ألفبائيا، ودعاه بوفيات الأعيان ، على أساس أن معظم الشخصيات لاتعرف بالتأكيد سنوات ولادتهم، بل سنوات وفياتهم، لأنهم يحظون بالاهتمام بعد نيلهم الشهرة، وهكذا تضبط سنوات وفياتهم.

وفضلا عن المعاصرة، عاد ابن خلكان الى محتويات المكتبة العربية في بلاد الشام ومصر، فهو قد عاش بالقاهرة سبع سنوات عمل فيها بالتدريس بالمدرسة الفخرية، ونال كتاب وفيات الأعيان شهرة واسعة واتخذ قاعدة اما للاكمال أو لاستدراك بعض مافات المصنف، وقد قمت بانتزاع جميع التراجم التي حواها الكتاب لأعلام تاريخ الحروب الصليبية ومقدماتها، وهي غنية المادة كثيرة الفوائد، فيها أمانة بالنقل ونزاهة ، ذلك أن سلوك ابن خلكان الصارم في القضاء انعكس ايجابيا على عمله في التاريخ.

ولدى عرض مواد موسوعتنا حول الدولة الايوبية أيام صلاح الدين رأينا أن هذه الدولة فقدت مركزيتها وتحولت الى عدة ممالك، كان ابرزها وأطولها عمراً مملكة حماه.

وتعد مدينة حماه من أهم مدن بلاد الشام وأقدمها ، وغالبا ما تنافست مع حمص لقصر المسافة بينهما ولارتباطهما بنهر العاصي،

ونظراً لموقع حمص المتميز، فقد تفوقت على حماه قبل ظهور الاسلام وبعيد نجاح حركة الفتوحات العربية، لكن الفتوحات العربية غيرت كما ـ هو معلوم ـ البنية الاستراتيجية: السياسية والعسكرية لمدن بلاد الشام، حيث سرعان ما تقدمت كل من دمشق وحلب نحو الصدارة، وتراجعت القدس وأنطاكية، ومع الأيام قام تنافس شديد بين حلب ودمشق حول السيادة في بلاد الشام، ولم يحسم هذا لصالح أي من المدينتين، وفي الوقت نفسه عانت حمص من الاهمال وتعرضت لكوارث عسكرية الأمر الذي أفاد حماه، حيث تولت دور الحاجز بين دمشق وحلب ،وبين قلاع جبال بهراء إلى الغرب منها والبادية في الشرق، وإلى حماه هاجر كثير من علماء معرة النعمان، لابل قدم إليها علماء من العراق ومن الأندلس أيضا ولدى استقرار الحكم الأيوبي فيها رعى هذا الحكم العلم والعلماء، وتوفرت اهتمامات كبيرة بعلم التاريخ حتى من قبل ملوك المدينة، فقد كتب الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، ثاني ملوك حماه [٥٦٧ ــ ٦١٧هـ/ ١١٧٢ـ ١٢٢٠م] كتاباً كبيراً في التاريخ اسمه «مضمار الحقائق وسر الخلائق » ، وصلتنا قطعة منه نشرت بالقاهرة عام ١٩٦٨، وسيمر بنا أبو الفداء المؤرخ والجغرافي الكبير .

ومن أوائل المؤرخين الحمويين شهاب الدين ابراهيم بن أبي الدم ففي حماه ولد سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م ، وبها نشأ وتربى وتثقف ، وقد تسلم القضاء في حماه وتكلف بأكثر من مهمة رسمية مما مكنه من زيارة حلب ودمشق والقاهرة، ونال مكانة علية في حماه، وعاصر أربعة من ملوكها الأيوبيين هم: تقي الدين عمر، ثم ابنه المنصور محمد، ثم ولده الملك الناصر قليج أرسلان (٦٢٦ ـ ٦٤٢هـ/ ١٢٢٠ـ ١٢٢٩م) وأخيرا أخيه الملك المظفر الثاني محمود (٦٢٦ــ ٦٤٢ هـ/ ١٢٢٩ـ ١٢٤٤م).

وكانت علاقة ابن أبي الدم جيدة مع هذا الملك ، على عكس علاقته مع قليج أرسلان، وهذا واضح من خلال كتابه في التاريخ الذي نقدم للقسم المتعلق بالحروب الصليبية منه، وبما أن علاقات المنصور الثاني كانت جيدة مع الكامل الأيوبي ، فقد سوغ ابن أبي الدم تسليم الكامل القدس الى الصليبيين، وهذا التسويغ ضعيف يتنافى مع موقف علماء الاسلام آنذاك من هذا الحدث الجلل ويتعارض تماما .

ولعلاقات ابن أبي الدم الجيدة بالمظفر الثاني فقد أسهم في شؤون حماه السياسية وسواها، وهذا الجانب واضح بعض الشيء من خلال مادته التاريخية وكتب ابن أبي الدم بالقضاء وبالتاريخ والفقه والحديث والملل والنحل ، وأهم ما كتبه بالتاريخ: التاريخ المظفري، والتاريخ الكبير أو المقفى، ثم اختصر المظفري بكتاب عرض فيه للتاريخ الاسلامي حتى أيامه.

وكنت قد رأيت في مكتبة أياصوفيا نسخة مخطوطة من التاريخ المظفري في مجلدتين ، لكن ترجمة فارسية له، وليس النص العربي ، ووصلنا من مختصره للتاريخ الاسلامي أكثر من نسخة خطية ، اعتمدت منها نسخة مكتبة البودليان مارش ٦٠ ، وفيها / ١٨٧/ ورقة.

وكان الدكتور حامد زيان غنيم قد نشر في القاهرة عام ١٩٨٩ قطعة صغيرة من الكتاب، وأبلغني مؤخرا أن في نيته متابعة العمل في نشرته وأخبرته بدوري أنني قد أعمد الى نشر الكتاب دفعة واحدة.

وعاش ابن أبي الدم حتى سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، وعلى هذا عاصر جملة احداث العصر الأيوبي ، وكان شاهد عصر لها، ومن هذا المنطلق تتأتى أهمية ما كتبه عن عصره، وإن كان مختصراً ، وإنها المرة الأولى التي تنتشر بها هذه المادة في موسوعتنا.

ومن الحمويين الذين عاصروا ابن أبي الدم محمد بن علي بن نظيف ، ونحن لانعرف عن هذا المؤرخ سوى الاشارات التي أشار بها إلى نفسه في كتابه التاريخ المظفري، لانعرف متى ولد ، ولاسنة وفاته بالتأكيد ، وإن كنا نرجح أنها كانت سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م ، وابن نظيف لم يمض حياته في حماه بل في الجزيرة وسواها، وعاش فترة طويلة في حمص، وتوطدت علاقته بملكها المنصور ابراهيم بن المجاهد [ت: ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م]، وله أهدى كتابه « التاريخ المنصوري».

وجاء هذا الكتاب بمثابة اختصار لكتاب كبير بالتاريخ اسمه «الكشف والبيان في حوادث الزمان » ، وهو كما يبدو تاريخ عام للاسلام ، أهم ما فيه ماعاصره المؤلف.

ونعرف من كتاب « التاريخ المنصوري » نسخة خطية واحدة تحتوي على ٢٢٧ ورقة، سلف أن نشرت كما هي صورة طبق الأصل في موسكو عام ١٩٦٠، وقام فيما بعد د. أبو العيد دودو بنشر قطعة من الكتاب تتضمن ما حدث بعد وفاة صلاح الدين حتى نهاية الكتاب ، وطبعت هذه القطعة بدمشق عام ١٩٨٢، وقد اثقل المحقق نص الكتاب بحواشي لا طائل تحتها لا فائدة تذكر منها، واستعار أحد الاصدقاء مني صورة المخطوطة وأعلمني عن نيته بتحقيق نص الكتاب كله، وسيكون هذا مفيدا، والذي قمت به الآن أنني أعدت تحقيق ما نشر بدمشق عام ١٩٨٢ مضيفا إليه ما تعلق بأحدث الحروب الصليبية ومقدماتها قبل وفاة صلاح الدين.

ولدى ابن نظيف بعض الروايات قد انفرد بها،إنما حوادثه تدعم على العموم روايات المؤرخين الآخرين، وفي ذلك فائدة كبيرة.

وأشهر ممن قدمنا ذكرهما من الحمويين ابن واصل جمال الدين ، أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل، الذي ولد بحماه سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٨ م وفيها توفي سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨ م لقد زار ابن واصل مدن بلاد الشام وبغداد والقاهرة والحجاز، وأقام بالقاهرة عدة سنوات أيام الصالح نجم الدين أيوب ، وكان من شهود حملة الملك الفرنسي لويس التاسع ، وعاش سقوط الحكم الأيوبي في مصر ثم في الشام وتأسست له صلات متينة بالسلطان الملك الظاهر بيبرس ، الذي أرسله سفيراً إلى منفرد بن فردريك الثاني ملك صقلية وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة.

كان ابن واصل موسوعي المعارف، كتب بالأدب، والهندسة وعلم الهيئة والجغرافيا والطب والتاريخ، واختص بالتأريخ لبني أيوب ، ويحكى أنه أرخ لجزيرة صقيلية، وتعد جل مؤلفاته بحكم المفقود، ونظر إلى كتابه« مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» على انه أهم ما صنفه بالتاريخ ، وقد شرع في نشر هذا الكتاب بالقاهرة منذ مايزيد على الأربعين سنة، ومايزال جزء منه لم ينشر بعد، قيل لي إنه بالمطبعة منذ أكثر من عامين.

وعلى أهمية كتاب مفرج الكروب، أرى أن أصالة ابن واصل في التدوين التاريخي تظهر في كتاب آخر له بالتاريخ اسمه « التاريخ الصالحي»، وهو كتاب في التاريخ الاسلامي العام، عرض مواده بشكل مختصر، فابن واصل في كتابه مفرج الكروب مصنف جماعة لروايات الآخرين، لكنه هنا شخص آخر ، هو فعلا مؤرخ بكل ما تعنيه الكلمة بالمقاييس الاسلامية.

وعرفت من كتاب التاريخ الصالحي نسخة غير كاملة تضم بعض أول الكتاب وهي محفوظة بالمكتبة البريطانية (المتحف البريطاني

بلندن) وأخر ى كاملة موجودة في مكتبـه الفاتح باستانبول، ومن نسخة استـانبول هـذه انتـزعت ما تعلـق بموضـوع الحـروب الصليبية وحققتـه ونشرته ، ولا أعرف أنه سلف لغيري أن نشر منه شيئا.

من اللـه تعالى أرجـو التوفيق والعـون وله جـل وعلا الحمـد والشكر والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى آله وأصحابه أجمعين

١٣ ـ جماى ا لأولى ١٤١٦هـ

دمشق ٧/ ١٠/ ١٩٩٥م

سهيل زكار

obeikandl.com